

فتاة الشك !

سلسلة مقالات للدكتور / خالد الدريس



فتاة الشك ١

كان رمضان هذه السنة مختلفاً جداً
بالنسبة لي، لقد حزم حقائبه وودّعني راحلاً
ككلّ سنة، وفي قلبي ألمٌ على فراقه، ولكنه
هذه المرة خلف لي ذكرى ربما ستغير مسار
حياتي، فقبل أن تدخل العشر الأواخر بأيام
قليلة، تلقيت على بريدي الالكتروني رسالة
عجيبة، كان أسلوب الرسالة أشبه شيء
بالاستجداء العاطفي الملح، لقد كانت
مؤثرة إلى درجة لم أكن أتخيلها، لم تطلب

الرسالة مالا أو متاعاً، أو شيئاً دنيوياً، لقد كان الطلب غريباً بعض الشيء!.. كل ما تطلبه: "أرجوك هناك فتاة استولى عليها الشك في الله - عز وجل - ، وحاصرتها الشبهات في كل شيء يتصل بالإسلام، فأرجوك رجاء حاراً أن تحاورها، فهي مُستعدة لذلك وتبحث عن يجيب عن إشكالاتها واستفساراتها، وكل الذين اتصلت بهم لهذا الغرض اعتذروا، وأنت يا دكتور آخر شخص أتصل به، وبصفتك ممن يهتم بمسائل التفكير من منظور إسلامي، فإن غالب ظني أن هذه الفتاة من

خلال حواراتي معها هي في حاجة ماسّة إلى تنظيم أفكارها، وأرجوك بحرارة ألا تقفل في وجهي هذا الباب، فأنا أبكي بكاء شديداً لوضع هذه الفتاة " .. إلى آخر ما ورد في تلك الرسالة الطويلة التي قرأتها عدة مرات.

فطرحْتُ على المرسلِة التي عرّفْتني بنفسها بشكل واضح عدة أسئلة، ولقد تفاعلت أنها لا تعرف (فتاة الشك) شخصياً، ولا تعرف اسمها كاملاً، ولم تسمع حتى صوتها، فكل شيء تم بينهما عبر ((تويتر)) والبريد الإلكتروني..

**وكان سؤالي: ما مدى جديتها ؟ وهل هي
بالفعل تعاني (قلقاً وجودياً) و (أسئلة
شكية) ؟**

**فلربما كانت باحثة عن الإثارة والمخالفة
للاستمتاع بغرائبية جديدة عليها وهي ()
نقد المقدسات والسخرية منها (لاسيما مع
حادثة سنها !**

**فكان الجواب : "حدسي يقول : إنها ليست
كذلك ، لا أستطيع أن أوكد لك أي**

شيء يتصل بشخصيتها ، كل ما أعرفه من خلالها هي : فتاة سعودية في العشرينات من عمرها مثقفة وذكية وتكتب بأسلوب أدبي راق، ولا زالت تدرس تخصصاً علمياً دقيقاً .

خلاصة الأمر: وافقت على إجراء مُحاورة معها؛ لأن المرسلَة توصلت إلى بريدي من خلال طالبة من طالباتي في الدراسات العليا، وقد وضحت لي تلميذتي أن المرسلَة معروفة بتدينها، ورجاحة عقلها، كما أنها ذات شخصية فكرية مُميزة ، فبعد ذلك وافقت على أن يكون الحوار عبر البريد

الالكتروني، ولكي تشعر (فتاة الشك)
بالأمان والاطمئنان أخبرت المرسللة : " لا أريد
أن أعرف اسمها ولا أي شيء يتصل
بشخصيتها ، ولترسل لي أسئلتها عبر بريد
بديل وليس من بريدها الأصلي، ولتتخذ أي
احتياطات تمنحها الأمان الكامل" ..

ثم أخذت الأمور مساراً تطوَّرياً لن أبوح به،
فللمروءة أحكامها ، والوفاء بالعهد واجب
أخلاقي شرعي، وانتهت تلك القصة بعد
عشرين يوماً تقريباً نهايةً غير متوقعة،
وسأتناول في المقالات القادمة بعض

التفاصيل المتصلة بتجربتي الفكرية
والروحية بكل ما فيها من دهشة وألم .

لكن ما بهمني الآن أن أقول : من الموافقات
الغريبة، أنني في أول رمضان طرحتُ على
نفسي وعلى بعض من أثق في فكرهم
وعلمهم فكرة : **لماذا لا يتوجه البشر في**
عصرنا إلى محاولة ابتكار عواطف جديدة أو
مشاعر غير مسبوقة أو وسائل وتطبيقات
أخلاقية معاصرة مشتقة من أصول
الفضائل الكبرى المتفق عليها ؟

كان سؤالي المحوري :

هل يمكن لنا أن نوجه طاقاتنا الإبداعية والابتكارية إلى هذا الجانب الإنساني عوضاً عن تركيز مفهوم الإبداع في الأمور المادية فقط ؟

لماذا يُحصر الإبداع في ابتكارات مادية أو

لماذا لا يتوجه الإبداع اكتشافات علمية ؟

إلى المشاعر والعواطف والأخلاق ؟

وما هي إلا أيام ليست بالطويلة حتى

جاءت تلك الرسالة المؤثرة، وقد وقعت علي

كالصاعقة؛ لأن أسلوبها لم أعهده من قبل،

ورأيت أن صاحبة الرسالة قد مارست
(التجسد العاطفي) كتقنية أخلاقية،
وتماهت مع أسلوب (التقمص الشعوري)،
ولذا فقد فهمت مشكلة فتاة لا تعرفها ولم
تسمع لها صوتاً، بل لقد عاشت مشاعر تلك
الفتاة إلى درجة البكاء والألم والتفكير فيها
لساعات ليس إعجاباً بصورتها أو إعجاباً
بصوتها أو بأيّ شيء مما يُفتن به البشر، لقد
كانت القضية فيما ظهر لي خوفاً عليها
من ضياع الإيمان..

لحظتها ولحظتها فقط، تخيلت أن
مسؤوليتي هي إنقاذ العالم ، تصورت بالفعل
أني مكلف كأبي بطل أسطوري بالنضال عن
مصير أجمل ما في حياة البشرية من حق
وخير وجمال ، كنت ساعتها أشعر وكأنني
سأمثل البشرية في معركة فاصلة ، وحينها
غمرني شعور بأنني أحمل جبلاً من الهم..

عفواً أخي القارئ أختي القارئة، قد يكون
الكلام مضحكاً ، لكن هذا هو الواقع ..

كان قراري قد تشكل ونضج، سأدخل هذه التجربة الفكرية والروحية مستخدماً طريقة (التقمُّص الشعوري)، سأتلبَّس بمشاعر الأبوة نحو (فتاة الشك)، ولأنني أب لثلاث فتيات هن أروع ما في حياتي، كنت قادراً على أن (أتجسّد) عاطفة الأبوة بكامل تفاصيلها.

وبلا تردد بعد أن أرسلتُ رسالة الموافقة على إجراء الحوار؛ انخرطت تدريجياً وبإيقاع سريع في التوحد التام والكامل والشامل مع عواطف أب يُفاجئه نبأ تزلزل

يقين ابنته الغالية المحبوبة التي حملها
صغيرة بين يديه، وعلمها نطق الشهادتين
وأركان الإيمان والإسلام، ورافقها في
أفراحها وأتراحها، ومدارج صباها، ورآها تكبر
يوماً بعد يوم أمام ناظره.

لقد سكنني شعور صاعق، أحقاً ثمرة قلبي
وفؤادي وكياني تعاني من (أزمة) فكرية
روحية يشنها (شكٌّ مُستبد) ؟

لم يتجاوز الأمر ساعة وأنا أحيا تلك
المشاعر والتصورات حتى هطلت دموع

ساخنة في ليلة رمضانية مفعمة بالسكينة
واليقين، كان الموقف صعباً للغاية، بل
أكبر من أن أصفه في هذه الأسطر اللاهثة،
سأدع لكم حرية التخيل خاصة لمن كان
منكم أباً أو يعرف مسؤولية الأبوة وشفقتها
وحنانها وآلامها !

في تلك الأثناء سمعت صوت إحدى
صغيراتي وهي ترتل القرآن في الغرفة
المجاورة، فقفزت من مقعدي لأشعورياً
وتوجهت إلى مكانها، ووقفت بقربها فإذا هي
تقرأ في مصحفها، فلما رأتهني سألتني عن

تفسير قول الخالق سبحانه : (اللهُ نُورٌ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ
مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ) النور: ٣٥

أجبت عن سؤالاتها، ثم جلبت لها كتاباً في
التفسير ميسر لتصل للمعلومات بنفسها
وتشبع نهما المعرفي، ورجوتها بشدة ألا
تتردد في طرح أي سؤال، ضمنت ابنتي إلي
ثم انصرفت حابساً عبرتي.

كانت آية النور موافقة غريبة أدهشتني،
كانت مؤشراً خفياً أشعرنى بأن نور الإيمان
قاهر ساطع لن يستطيع ظلام الإلحاد أن
يحجبه أبداً، وانسكبت في نفسي أنهار
السكينة والطمأنينة عند ذلك، ووجدتُ
توكلي على الله مستعيناً به سبحانه على
شأني كله .

ثم بدأت تتوارد الخواطر على تفكيري..

ماذا لو كانت ابنتي الافتراضية (فتاة
الشك) تسأل الآن عشرات الأسئلة

الاستشكالية، وتتكاثف سُحب الارتياب حول

نفسها فتغمرها بسوادها وخوائها وآلامها !

من سيحتوي تلك المشاعر المرعبة ؟

من سيطفئ لهيب الشك الذي يحرق

نفسها الصغيرة الوادعة بتعذيبه البشع ؟

هل أنا قريب حقاً من بناتي بما يشجعهن

على الإفضاء إلي بمشكلاتهن الفكرية

والنفسية والعاطفية ؟

ماذا لو كانت إحدى بناتي تنتابها

موجات شك عميق وهي تكتم ذلك عني ؟

أليس من الممكن جداً أن أياً من أبنائي
الذكور أو الإناث تعتريه أسئلة وإشكالات
متكررة حول الخالق سبحانه وصدق النبوة
وسلامة الوحي ولا يجد ملاذاً للتعبير عن
حيرته إلا مواقع التواصل الاجتماعي باسم
مستعار؟

كل ذلك كان مُمكنًا في مثل هذا
العصر الغريب الذي تتدفق فيه المعلومات
المشوهة والأباطيل والمفتريات والشائعات عبر
وسائل الاتصال الحديثة بوتيرة سريعة
ومخيفة في كل ساعة .

وعادت بي الذكرى إلى بداياتي المعرفية
عندما كنت في فترة دراستي المتوسطة،
حينها عشت مرحلة (الشك العاصف) مع
أني ترعرعت في عهد لم يكن يعرف الانترنت
أو التويتر والأجهزة الكفية، ومع ذلك مرت
بتلك الأفكار والمشاعر، لقد عشتها
وتنفستها وقاسيت من لسعاتها وحروقها،
اختلفت الاغتراب النفسي، والوحدة النفسية
بكل ما في ذلك من معاناة !

وفي معمعة تلك الأفكار والمشاعر
الحقيقية، وصلت الرسالة الأولى من ابنتي
(فتاة الشك) كانت تحمل اسماً مستعاراً
كما اتفقنا على ذلك، لم تكن رسالتها
بالطويلة، لكنها كافية لتمدني بخيوط
عريضة لأعرف جزءاً من شخصيتها، قرأتها
مرات ومرات، حاولت أن أستشف منها معالم
عامة، وأظني تمكنت ولو بنسبة لا بأس بها
من ذلك.

كانت الرسالة تكشف عن شخصية قلقة،
مترددة تعيش خوفاً حقيقياً يحاصرها

ويخنقها ، وكان من الواضح أن ابنتي (فتاة الشك) تسيطر عليها رؤية ((مثالية)) للعالم والأشياء والأفكار، أستطيع أن أقول : إنها شخصية حساسة جداً، خجولة، تميل للانطوائية، لديها عقل واع يقظ متسائل..

لقد عرفتني بخلفيتها العلمية بشكل موجز، وألمحت إلى عدم رغبتها في مناظرة وأن حاجتها لمن يساعدها على التفكير، موضحة تذبذبها الاعتقادي، كان أسلوب الكتابة يعكس لغة ثرية، وعقلية متماسكة، ولاحظت أن علامات الترقيم في محلها بدقة

ملفتة للنظر، والانتقاء للكلمات كان
مدروساً ويدل على قرارات غير متسرعة،
كانت واعية جداً لحجم المتاهة التي
تعيشها وأفصحت عن ذلك باقتدار .

لم أتردد في الرد سريعاً مرحباً بالحوار،
وصدرت رسالتي لها بكلمة (ابنتي) مقرونة
باسمها المستعار، وسأخبركم في المقال
القادم - إن شاء الله - ما الذي قلته لها ،
وكيف عرفت بنفسي ومنهجي في التعامل
مع شكوكها .

من المؤكد أن خطوة الحوار بالنسبة لـ (فتاة الشك) كانت محفوفة بالمخاطرة والرعب ، فليس سهلاً على فتاة صغيرة في السن، مرهفة الأحاسيس، نشأت في مجتمع محافظ متدين أن تتحدث مع شخص غريب يحمل تخصصاً شرعياً، ويكون محور حديثهما في أمور حساسة، من المؤكد أنه قد خطر في ذهنها : قد يتطور الحوار بصفة غير متوقعة فينتهي إلى وصفي بالمرتدة الكافرة .

كنت أقدر حجم المخاطرة التي أقدمت
عليها، وأقدر لها شجاعته في البحث عن
الحقيقة وعدم الاستسلام لأصوات
التشكيك والارتياب التي تصم مسامع
تفكيرها، كما أكبرتُ فيها أنها استأمنتني
على خاصة سرها، لذا كان واجبي
الأخلاقي يفرض علي أن أعاهدها عهداً
قاطعاً بأن أحميها كما أحمي روعي
وعرضي من أي ضرر قد يلحق بها بسبب
هذا الحوار.

لم أحتج إلى وضع خطة أو استراتيجية
للحوار معها ، فقد كانت تجاربي السابقة
كفيلة برسم المنهج العام لحواراتي ،
ويمكنني أن أوجزه في الركائز التالية :

أولاً : بناء جسر من الثقة بيننا، لذلك
طلبت منها أن تزور موقعي على النت
وصفحتي في تويت ، وتطلع على سيرتي
واهتماماتي العلمية ، وبعض محاضراتي
وكتبي، وأمددتها بما يسهل عليها ذلك،
حتى لا يبقى في نفسها هاجس أو خوف،
وقدرت لو كنت مكانها لشعرت بعدم الأمان

، بل والقلق الدائم حول جميع التفاصيل
والتوقعات المستقبلية، ومن جهتي فقد
تأهلت بصورة كافية لتفهم حالتها،
والتعاطف مع قسوة مشاعرها وهي تجتاز
هذا الاختبار الصعب، كان من الضروري أن
نبني جسراً من الثقة والتفاهم، وبكل
صراحة كانت طريقة (التقمص الشعوري
(لها الأثر الأكبر في التعاطف مع آلامها
وعذاباتها، إلا أن هذه الطريقة أجهدتني
عاطفياً بصورة لم أكن أتوقعها، كنت أظن
أن المسألة ستزيد قدراتي على تفهم الطرف

الآخر فقط ، فإذا بالأمور تسير إلى حد
الإرهاك النفسي الشديد .

ثانياً : الاستكشاف المتدرج لشخصية

شريكي في الحوار والتعرف على تكوينه
الثقافي والعلمي، وبنائه الفكري والنفسي،
ومنظومة القيم والمبادئ العقلية والأخلاقية
التي تحكم عالمه، حتى أعرف كيف يفكر
؟ وماذا يريد ؟ وما نقاط قوته أو نقاط
ضعفه فكرياً ؟

بالإضافة إلى أمور أخرى مهمة لأبد منها
عند الحوار ، كي يتعمق فهمي بخصائص
شريكي في الحوار وأحواله .

ولكن لكون الحوار كان مع فتاة وجدت
حرجاً بالغاً في تنفيذ هذه الخطوة
واكتفيت بما لدي من معلومات شحيحة ،
وأكملت ملأ الثغرات الكثيرة برسم ما تبقى
من معالم شخصيتها من خلال ما يمكن أن
أسميه بأسلوب (متتاليات اللوازم) بحيث
أبحث عن أجوبة محتملة ومقاربة عن جملة
من الأسئلة توضح اللوازم المتسلسلة والأمر

المتولدة عن بعض الصفات ، ومن ذلك مثلاً

:

ما الخصال والانفعالات النفسية

والفكرية الملازمة للشخصية الانطوائية ؟

هل تشعر (فتاة الشك) بأنها مكبوتة

اجتماعياً كحال كثير من الفتيات اللاتي

يتمنين لو ولدن ذكوراً ليمارسن حرية

أكبر مما هو متاح لهن ؟ إذا كان الأمر

كذلك فما هي الانفعالات والصفات

والأفكار المتولدة عن الشعور بالكبت ؟

أليس من نواتج صاحبة الشخصية
الحساسة أن تتضخم لديها مشاعر الضجر
والملل والحزن والضييق عندما تصطدم
بمشكلات أسرية واجتماعية؟
ما الصفات النفسية والفكرية الملازمة
للشخصية المثالية المفرطة في مثالياتها ؟

كانت الإجابات بتلك الطريقة تسد
الفضوات المعلوماتية بطريقة ألجأتني إليها
الحاجة ، ولو أتاحت لي المعلومات لكنت
الأمر أكثر علمية ووثوقية من طريقتي

تلك ، ولكن لا حيلة للمضطر إلا ركوب
الأسنة !

ثالثاً : تحديد طبيعة المشكلة الفكرية ،
بالنسبة لـ (فتاة الشك) ..

كانت هناك ثلاث مستويات لمشكلتها
تتداخل وتتشابه وتلتبس وكلها محتملة،
وهي هل ما تعاني منه يعد شكاً متأسلاً أو
وسواساً يعرض ثم يزول أو أسئلة إستشكالية
؟

وكان من الواجب تشخيص حالتها
بالتحديد ؛ لأن هناك فروقاً بين هذه

الحالات فالشك هو حالة ((تردد)) بين طرفي أي قضية تتضمن الإثبات والنفي بلا ترجيح لطرف على الآخر ، ويمكن تعريفه أيضاً بأنه حالة نفسية يتردد معها العقل بين النقيضين فلا يؤكد أحدهما ولا ينفي الآخر ، فيحصل التوقف عن الترجيح .

وكان هذا من ضمن الاحتمالات أن تكون (فتاة الشك) انتهت إلى قرار أن الدين لا يمكنها أن تؤكد ثبوته ولا يمكنها تؤكد بطلانه، فتصبح بذلك شاكة، ويستمر هذا الحكم عندها بلا ترجيح .

المستوى الثاني : الوسواس ، وهو خواطر غير محمودة تطرأ على الذهن ولكنها تزول حيناً ثم تعود، وكان هذا هو الإحتمال الثاني أن ما لديها هو وساوس فقط وليست شكاً متأسلاً .

المستوى الثالث : الأسئلة الإستشكالية، ويقصد بها أن المسلم أثناء اطلاعه على القرآن والسنة والتدبر فيهما تنشأ لديه إشكالات بسبب مخالفة تتهياً له أو تبدو له ويتوقعها بين ذلك النص الشرعي والعلم المادي مثلاً، أو بين نص ونص آخر، ونحو

ذلك من المعارضات المتضادة ، فيتطلب لها
حلاً إما بالجمع حسب شروطه المعروفة لدى
العلماء أو الترجيح وفق ضوابطه المشهورة .
وهذا هو الاحتمال الثالث بالنسبة
لطبيعة المشكلة الفكرية لدى (فتاة الشك)
.

وأظن أن ابنتي (فتاة الشك) بدأت في أول
أمرها بالأسئلة الإستشكالية ، ثم انتقلت
لمستوى الوسوسة ، حتى وصلت إلى الشك ،
ولكن غالب ظني أن يقينها يزورها أحياناً
ويستقر لمدة في ضميرها ، ثم تجهز عليه

وحوش الشك ، فيتواري يقينها هارياً
لضعفه وقلة عدته وعتاده ، لكنه لم ينهزم
نهائياً حتى الآن ، وشاهدي على هذا الظن
أنها لو وصلت لحالة التأقلم مع الشك
والتعود عليه ، لم تطلب الحوار ، ولم تبحث
وتفتش عن يساعدها على اجتياز حالة
الشك التي ضجرت منها ، بل بسببها
ضاقت عليها الأرض بما رحبت .

ولو أنها وفقت إلى من يجيب عن أسئلتها
الإستشكالية في بداياتها ، أو يبصرها
بخطوات البحث العلمي الرصين الساعية

لفهم جذور ولادة تلك الأسئلة ومكوناتها
ونتائجها ؛ لقطعت الطريق على الإغواء
النفسي الذي بلغ بها إلى المرحلة الثانية
التي لم تحسن التعامل معها أيضاً ، ثم
انتهى بها الأمر إلى مرحلة متقدمة وخطرة
.

في بواكير شبابي كان لي رفيق سوء
أوهمني حين عرفني بنفسه بأنه (العقل)،
ولكن الأيام كشفت لي أنه مُزور مُحْتال،
كان يظهر لي مُتَنكراً في صورة (الذكاء)،

وحيناً كان يتستر تحت شعار براق أخاذ
يقال له: (التفكير الحر).

صاحبني جليس السوء و الباطل مدة
ليست بالطويلة في مسيرتي الفكرية، فمرت
الأيام وأنا لا أعلم بسوء طويته وخبث
أفعاله، ولكن التجارب كشفت لي بفضل
الله وكرمه فأمسيت أناديه بلقبه الحقيقي
(الشك)، ولأنني خبرته جيداً سأصفه لكم :
هو مخادع ماكر مُخَاتِل ، يُجيد المراوغة ،
ويُحسن التشكل، خَوَّان كذوب، يمشي
بخبث، ويصعد بغدر، ويهبط بلؤم، كالزئبق

لا يمكن الإمساك به، وليس له لون معروف
كالأفعى يتلون وفق الحاجة، كان بارعاً
للغاية في التخفي، وانتحال صفات
العقلانية والنقد والموضوعية.

وحتى لا أغلو في ذمه فلا بد أن أقول: إن
للشك أنواعه وأحكامه، و ليس هذا مقام
بسط الكلام عن الفرق بين شك مؤقت هو
من قبيل التثبت المحمود، وشك دائم مذموم
يهدم الفكر ويعوق الإرادة ويُفسد الحياة،
وهذا الأخير هو مقصودنا في الحديث هنا ،
وسنرجئ التفصيل في الشك وأحواله

ومغالطاته الجدلية إلى مناسبة أخرى إن شاء الله.

استناداً إلى تجاربي السابقة وخبرة في النقاشات لا بأس بها ، صح العزم أن أحدد منطلقات سياستي الحوارية مع (فتاة الشك) بمراعاة ثلاثة أمور، قد لا يُفطن إليها دائماً في النقاش مع الشكاكين خاصة اللذين عاشوا في بيئات إسلامية، فكانوا ممن قرأ القرآن و مكثوا زمناً على صلة به، قبل أن يُبتلوا بمن يشككهم في آياته . وسأسوق هذه الأمور الثلاثة على أنها بدايات حل

ومقدمات علاج ، وليس على أنها هي الحل
كله، أوالعلاج بأجمعه، لذا أود من المهتمين
بهذا الأمر كالأمهات أو المعلمات وغيرهن،
أو حتى ممن يعانون من محنة الشك في
الدين، أن يتدبرن فيما سأقوله الآن باعتباره
خطوات أولى فقط في حل المشكلة، وخالصة
الأمر الثلاثة فيما يلي :

- الأول : حارب الشك بسلاحه :

في بعض الأحيان، عندما تتمكن الشكوك من
بعض العقول وتتجذر فيها ، فإن الخبرة
العملية المستفادة من دروس الواقع وتجاربه

تقول: قد يُقطع رأس (الشك) بسيف
الشك نفسه، لقد كنت أميل إلى أن (فتاة
الشك) ستجد عشرات التشكيكات
والإيرادات على كل جواب سأطرحه في وجه
شبهاتها القرآنية أو اعتراضاتها الدينية،
ولهذا رأيت أن الأنسب لشخصيتها الفكرية
تحديداً أن أزل مكانة الشك في قلبها،
فقد استقر في ظنها أنه هو النقد العلمي
والتفكير الحر، بل هو الاستقلالية العقلانية
عن الأفكار التقليدية التي نشأت عليها،
ولهذا كانت (فتاة الشك) منبهرة به
معجبة بالأعيبه منجذبة إلى كبريائه

وتمرده الرفض والمعارض لكل ما هو سائد
ومتعارف عليه، لقد وقعت في حباله
وأدمنته، نعم أدمنت (التشيك في
المقدسات)، ولم تعد ترى العلم والفكر
والعقل إلا من خلال إدمانها الذي خضعت
له بكل خنوع واستسلام فقد كان شعور
الرفض والاعتراض يغذي لديها الإحساس
بأنها متفوقة ومختلفة بتميزها عن
الأكثرية ، فمن كانت حالته أو حالتها
مقاربة لهذه السمات، يكون من المناسب أن
يبدأ معه بهذه السياسة ، ولكل حالة

تقديراتها الخاصة، فلا يعمم الحل على كل حالة.

أعود فأقول : قررتُ بأنني في المرحلة الأولى لن أخوض في الردود الشرعية أو الأجوبة الدينية ، بل سأقوم بفحص نقدي وتمحيص استقصائي لأعماق أسئلتها وإشكالاتها، مستخدماً الشك نفسه في طرح الاحتمالات معترضاً على كل إشكال تطرحه أو سؤال تلقيه، سأفكك بهدوء وأحلل بدقة مكونات كل إشكال، سأقف عند كل كلمة وسأتدبر كل تركيب لغوي مراعيًا ما قبله

وما بعده مطيلاً النظر فيه مع تقليب
الوجوه والافتراضات، وسأطرح أسئلة حول
مقدمات كل إشكال، واستفسارات عن
منطقاته الأساسية، ومسلماته الخفية غير
الظاهرة، وسأناقش نشأة كل إشكال وسبب
إيراده، وأبحث عن شروط كل سؤال تطرحه،
وسأجتهد في إيراد ما يعارض أسئلتها
ويضادها ويخالفها من الحقائق أو الوقائع،
ثم لأبد من التفكير في مآلات كل سؤال من
أسئلتها ونتائجها التي تتولد عنه ، ويكون
ذلك كله بمثابة التفكير بصوت عال عبر
إطلاق (قطعان من وحوش الأسئلة) كي

تنهش كل سؤال متعطرس بغرور الشك،
وكي تتحقق فائدة أخرى وهي أن (فتاة
الشك) تتدرّب على مناقشة الأفكار وفحص
الأسئلة والاستشكالات ويخف وهج إنبهارها
بكل سؤال يمليه الشك في المقدسات.

إذا عرفت (فتاة الشك) حقيقة تلك
الشبهات وتهافتها، وبدأت تشعر أن هالة
الإنبهار بالشك بدأت تتضعض أمام
ناظرها، حينها يكون الجواب ممكناً، مع أنني
لا أفضل طرح الأجوبة في المرحلة الأولى من
الحوار، لأن الإسلام منظومة متكاملة من

المفاهيم والقيم، فمن لم يفهم كلياته
العقدية وترابطها، فلن يقنع بأجوبة على
شبهات تتعلق بأجزاء من الدين مرتبطة
بأصول كلية، ولشرح ذلك أقول: من لم
يسلم بحقيقة العبودية لله ومحورية هذه
الأصل في الإسلام، فمن البدهي ألا يقنع
بغيره، كذلك حكمة الابتلاء، وعقيدة
القضاء والقدر، لذا أرى أن المبادرة بالأجوبة
على شبهات الشكاكين لن تكون مقنعة
لهم، والواجب أن يسبق ذلك مرحلة هجوم
على الشك بغرض هدمه حتى يتقهقر
غوره وتتهاوى زخارفه، وأما الابتداء

بالأجوبة الدفاعية عن الدين، فهي طريقة
ضعيفة غير مناسبة لعقول أسرها الشك في
معتقدات تعذيبه، بل الخطوة الأولى تكون في
تحرير العقل المأسور بالشك من قيوده؛
ليصبح قادراً على النظر الحر، وهذا ما
يسميه بعض علماء الإسلام بخطوة (الهدم
(فالهجوم على حصون الشك أقوى أثراً من
الدفاع فقط، ويجب ألا يعطى المخالف ميزة
المبادرة بالهجوم على الدين ونكون في مرحلة
الدفاع عن النفس، هذا خلل في سياسة
الحوار مع الشكاكين غفل عنه بعض
الصالحين في محاوراتهم . وفيما يروى عن

أرسطو أنه قال : ((لا يمكن أن تقاوم
الفلسفة إلا بالفلسفة))، والشك المذهبي
المَرَضِي تنطبق عليه هذه المقولة فيقاوم
الشك بالشك، لاسيما وأن أرسطو ممن
دخل في معارك ضارية مع السفسطائيين
الذين أفسدوا الحياة الفكرية في عصره بنشر
مذهبهم التشكيكي في كل شيء، بل يقال :
إنه لم يؤسس علم المنطق إلا لمواجهة الآثار
الدمرة لشك السفسطائيين، وكانت غايته
منه أن تعصم قوانينه الذهن من الوقوع في
الخطأ .

- الثاني : دعه يقتنع بنفسه :

من الخصائص النفسية لبعض الشخصيات المولعة بالتفكير والنظر أنها تقتنع بالأفكار التي تصل إليها بنفسها بعد بحث وتأمل، وتأنف من القبول بأفكار تقدم إليها بسهولة ويسر، لذلك كنت متوجهاً إلى أني سأكون مساعداً لفتاة الشك، لأجل أن تصل للمعلومات الصحيحة بنفسها، ولن ألقى إليها بأجوبة جاهزة، وقد تكون هذه الطريقة طويلة ومملة، ولكنها أقوى في الإقناع، إلا إذا طلب الشريك في الحوار أن

يسمع الجواب بلا بحث وتفتيش، فهنا لا
مفر من التبرع بالجواب كاملاً.

إن الشاب المتمرد مسكون بفكرة الاستقلال

الفكري، ولهذا ينفر من أي محاور يمارس
عليه وصاية أو تعاليم، وكأنه يقول له بلسان
الحال: أنا من سيعلمك لأنك لا تعرف
شيئاً، عندما يلمس الشاب هذه النبذة
المتعالية سيقوم تلقائياً حواجز نفسية تمنع
عقله من قبول الأدلة مهما كانت قوية، لن
يسمح لك أن تدك حصون فكره أو تغزو
تقديره لذاته بجدلك وأدلتك، لن يسمح

لك بممارسة التقليل من احترامه لنفسه،
سينافح ويواصل عن قناعاته السابقة بشتى
الحيل الجدلية ، لذلك من الخير له أن
تترك له فرصة الوصول للمعلومات
الصحيحة بنفسه من خلال مساعدته على
الاستفادة من كتاب أو مقال أو فيلم
وثائقي ونحو ذلك .

- الثالث : حرك العقل المشلول :

من الأمور المهمة جداً التي كنت أفكر فيها
أن أتحقق من القدرة على تذوق جمال
الطبيعة والكون، وممارسة الإنفعالات

العاطفية الإيجابية لدى شريكى فى الحوار،
فالعقل الذى ينشط فى البحث عن الحقيقة
كما يظن، وهو معطل من جهة العواطف
الإيجابية أو التذوق الجمالى، هو عقل
مشلول فى حاجة أن يُمنح فرصة حتى يسترد
عافيته ولياقته ، لذا لن تنفعه الردود
والأجوبة مهما كانت قوية ؛ لأنه ليس
مهيئاً للقيام بمهام الفهم والتحليل
بموضوعية وعدل بسبب سيطرة مشاعر
الاستياء والسخط والتذمر عليه وتحكمها
فى توجيهه حيث تشاء، وهذه المشاعر
السوداوية معطلة لأجزاء من وظائف العقل

وتوازنه، وأستعير هنا مقولة للعالمية الطيبية
سعادة الدكتور سيماء بخيت تقول فيها:
(الإنسان يبحث عن نفسه وعن خالقه في
هذا الوجود من خلال تفاعله مع الآيات
الكونية والعلاقات الإنسانية ، فإن كان
تفاعله مع الأولى نادراً أو معدوماً ، ومع
الثانية ضعيفاً أو سيئاً ؛ فلن يستطيع تقدير
عظمة الخالق وجمال المخلوق، فيرتاب في
الخالق لأنه ليس بمقدوره رؤية روعة
مخلوقاته أو إدراك حكمة تدبيره ، وبالتالي
لا يسعه إلا الإلحاد)، ومضمون هذا الكلام
أن العجز عن تذوق الجمال أو التفاعل مع

الانفعالات الخيرة يحول دون رؤية واضحة
للحقيقة فضلاً عن بلوغها . وهذا الأمر في
غاية الأهمية لأن الشك المتأصل ينمو في
بيئة تشاؤمية سوداوية تقود إلى ضرب من
الكآبة والسلبية المفرطة، مما يؤدي أحياناً
إلى نوع من الصقيع العاطفي، وجمود
الأحاسيس الفاضلة، وتعطل مراكز المشاعر
الإيجابية كالتفاؤل والحب والرحمة
والتعاطف مع آلام الآخرين، وكل ذلك
يؤثر في دقة أحكام العقل، كجهاز إستقبال
أصيب بخلل يعطله عن التقاط الذبذبات
والموجات، فيظن صاحبه أن المشكلة من

مصدر البث، وواقع الحال أن المشكلة في جهاز
التلقي نفسه .

لهذا لا بد من اكتشاف هذا الخلل في
البدائيات أو أثناء الحوار، وعندما نتحقق من
وجوده فعلينا بشد إنتباه شريكنا إليه، ومن
خلال التجربة ظهر لي أن الشك المتأصل في
المقدسات الدينية لا يستولي في حالات
ليست بالقليلة إلا على عقول لديها عجز
عاطفي، أو لديها نظرة سوداوية تجاه الحياة
والمستقبل، وقد يكون ذلك بسبب التعرض
لاضطهاد أسري أو اجتماعي، أو بسبب

التهميش فكرياً لكون محيطه لا يمنحه
التقدير الذي يستحقه، فتكاثف سحب
الكآبة لتصيب النشاطات الانفعالية
الإيجابية بشلل جزئي أو كامل ، وتصبح
الانفعالات السلبية في حالة نشاط دائم
ويقظ وتمارس فاعليتها باندفاع وهنا مكن
الخلل الذي قد لا يُفطن له ؛ لأن العقل في
هذه الحالة لا يرى إلا ما يظنه سلبياً ولا
يركز إلا على ذلك فقط ، وبهذا يكون
عقلاً متطرفاً منحازاً مبتعداً عن العدل
والموضوعية والواقعية.

ومن هنا أؤكد بشدة على ضرورة تنشيط
العقل المشلول ومحاولة إعادة تأهيله بوسائل
مختلفة أولاً ليعرف نقصه وقصوره، وثانياً
ليبدأ في معالجة نفسه ليستعيد عقله
كامل وظائفه ونشاطاته .

وبالنسبة لفتاة الشك كان هذا الأمر
غامضاً لم أستطع حينها أن أهتدي إلى
تشخيص لحالتها ولو بالتقريب، كنت
محتاجاً لبعض الوقت حتى أتحقق.

وبعد التفكير في تلك الأمور الثلاثة،
أرسلت رسالة إليها وتعمدت أن أستشهد
بالحديث الصحيح: جاء ناسٌ من أصحاب
رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إلى
النبي - صلى الله عليه وسلم- ، فسألوه
- : إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظمُ أحدنا أن
يتكلَّم به ؟ قال: «وقد وجدتموه ؟» قالوا :
نعم، قال : «ذاك صريح الإيمان» . وفي رواية
قالوا : إنَّ أحدنا ليجدُ في نفسه ما لأنَّ
يَحْتَرِقَ حتى يصيرَ حَمَمَةً، أو يَخِرُّ من
السماء إلى الأرض ، أحبُّ إليه من أن يتكلَّم
به ؟ قال : «ذلك محض الإيمان» .

لكن يبدو أن الحديث لم يشد انتباهها ،
فقوي ظني أن معاناتها تتركز في شك
شرس، بدأ يرسخ جذوره في عقلها ويعطل
بعض أنشطته متمركزاً حول شكوكه
فقط، وقد كانت رسالتها الأولى حملت
بعض المؤشرات على ذلك.

حينها كنت أردد في نفسي: لو كنت
مكانها كيف سأنظر لشريكي في الحوار ؟

توقعت أنها سترأودها شكوك عدة حول
أهدافي، ستقول: هذا شخص متدين يريد أن
يجذبني إلى عالم اليقين الذي يراه هو، فكل
كلماته اللطيفة كقوله : ((يا ابنتي)) هي
من قبيل الخداع ، كي يستدرجني لأقبل
بأطروحاته وآرائه ، فإذا تأثرت بها سيحقق
الانتصار ويستمتع بفوزه.

لقد كانت معرفة تضاريس شكوكها
نحوي مهمة جداً لذلك سجلت تلك
النقاط محتفظاً بها لئلا أغفل عنها، فمن
المهم أن تبني الحوارات على الصدق والبعد

عن الإدعاءات الاستعراضية فما أسرع ما
يكشفها الشريك بسهولة .

من كان منكم سريع التأثر وله قلب رقيق،
فلا يقرأ كلامي؛ لأنني لا أضمن لكم أن
تنتهي حلقة المفاجآت هذه بمفاجأة، إما
تغرقكم في بحار الخيبة، وإما تنتشلكم إلى
قمم البهجة.

سأروي لكم أموراً أحسبها مفاجئة لكم
أوغير متوقعة بالنسبة لي ، حدث بعضها في
الحوار الأول مع (فتاة الشك) ، وبعضها

جرى بعد ذلك عبر رسائل بيننا على البريد الشبكي ، لن أطيل عليكم ، سأذكر كل مفاجأة بعنوان وبلا تسلسل لتاريخ الأحداث بل وفق أسلوب التداعي الحر للذاكرة ، وأترك لكم التأمل والحكم .

مفاجأة "الفتاة تراجع المقالات قبل نشرها" :

ربما كانت هذه مفاجأة لكم ، نعم هي متأخرة ولكن أحببت أن أبدأ بها ، لتعلموا أن (فتاة الشك) كانت على علم بكتابة هذه المقالات قبل أن تنشر، فأبدت رضاها إيماناً منها بأن مجريات المشكلة التي تشكو منها

قد تفيد الآخرين أيضاً ممن يقاسون المعاناة
نفسها، ومنذ الحلقة الثالثة رجوتها أن
تراجع المقالات قبل نشرها، فتحذف منها
وتعدل ما تراه قد يحرّجها أو يشكل لها ضرراً
معنوياً فوافقت على ذلك مشكورة، ولقد
أراحتني مشاركتها وخففت عني عبئاً
كبيراً؛ لأن هذا هو مقتضى واجبي
الأخلاقي مع شريكي في الحوار حتى لا
يسبق إلى ظنه أنني خنت الأمانة أو أردت أن
أنشر شيئاً لا ينبغي أن يُعلن على الملأ، وقد
أخطئ في ذكر شيء من حيث لا أدري .

مفاجأة "آهات كالحة":

كتبت تصف لي حالها بعد وقوعها في
الشك، فقالت: والدي الكريم : ((أشعر
بالخواء بعد ما مات كل مقدس في قلبي،
كأني أقف على خيط رفيع، أتذبذبُ بين
هؤلاء وهؤلاء، ولا أستقر)).

لن أبالغ إذا قلت: وصفها لحالها فاجأني،
لقد زلزلت كلماتها كياني، كانت مؤثرة
بقسوة على فؤاد مكلوم، لقد أشعرتني كما
لو أنها فقدت كل ثروتها وأموالها
وممتلكاتها ، فبعد شبع الإيمان وامتلاء

القلب بحب الله وذكره وطاعته والإحساس
بالأمن والأمان ، يمسي فؤادها اليوم خاوياً
خالياً فارغاً كأرض جرداء قاحلة بلا شجر
ولاً ماء ولا أي أثر للحياة ، وهو الذي كان
يوماً عامراً بالأنهار والبساتين والقصور، إن
ما تعانيه ابنتي (فتاة الشك) يوجد لدى
عدد ليس بالقليل من بناتنا وأبنائنا ولكنهم
يتكتمون على ذلك ويعيشون مع تلك
الشكوك بسرية خوفاً من الاستهزاء بهم أو
من ممارسة القمع الفكري عليهم ، لم يجد
مثل هؤلاء متنفساً يحتوي قلقهم ويتفهمه ،
فهم نتاج عصر المعلومات المتدفقة بلا تمييز

بين حق وباطل ، هم ضحايا لعصر وسائل
الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعي، وهم
أيضاً نتاج إهمالنا كأساتذة ومفكرين
ومسؤولين حين ابتعدنا عن اهتماماتهم
الفكرية والمعرفية، ومضينا في صلف نتجاهل
حاجاتهم وآلامهم وهمومهم ، ألقينا بهم في
بحر الانفتاح المعلوماتي بلا تدريب لعقولهم
أو تعزيز لمناعتهم الفكرية والنفسية .

مفاجأة "اعترافات الفتاة" :

كنت مستعداً لاحتمال غير مستبعد،
وهو أن تكون (فتاة الشك) من ذلك النوع

الذي واجهته في بعض حواراتي مع الشباب،
تعاند لأجل إثبات رأيها وتتهكم بالدين
وتسخر منه، ولكنها كتبت لي كلاماً أخذ
بمجامع قلبي لما فيه من الصدق وتحري
الحق والموضوعية، وأيقنت أنني أمام فتاة
مختلفة، ليس لديها تعصب لشكوكها، بل
تبحث عن الحق وتفتش عنه، وشدني صدقها
مع نفسها، فقد كانت مدركة بوعي تام إلى
نقص في أدواتها المعرفية، وسأترككم تقرؤون
مقتطفات من كلامها، وأذكركم أن من
تكتب هذا النص فتاة في العشرين من
عمرها، وتذكروا أن أمثالها يعيشون بينكم

ولكنكم لا تشعرون بهم ، تذكروا هذه
الحقيقة جيداً حتى لا نتجاهل مشكلاتنا
بالتستر والتأجيل والتهوين:

((والدي الكريم : لا أزكي نفسي، لكنني
لا أرى في نفسي كبراً أو غروراً، إنما أحاول
البحث عن الحقّ أيّاً كان ، نعم أجهل الكثير
، ولا أعرف التعامل مع الحجج والبراهين
أيضاً، وسأحاول بقدر المستطاع أن أقف
موقف الحاكم النزيه ، وسأتسلح
بالموضوعية.

ودائماً أقول: إن المفكر الذي يضع في
اعتباره نتيجة معينة ثم يسعى للوصول
إليها مدعياً أنه يقوم بالبحث والتفكير فهو
مُخطئٌ ، ويكون مُتبعاً لهواه وشهواته
ورغباته.. إذ أنه سيأخذ من المعارف ما ينفعه
ويوصله لتلك النتيجة المحددة مسبقاً
ويترك ما عداها، وهذا ليس بابحثٍ عن
الحقيقة ولا يمكنه أن يكون كذلك .

خطتك راقته لي جداً ، لأنني وجدت فيها

ما ينقصني . فبعد ما قرأت هذه الرسالة

شعرت بأنك سوف تعطيني الأدوات العقلية

التي ستمنحني القدرة على الحكم .. وفي

الحقيقة لم أكن أشعر أنني أعاني "فوضى
فكرية" إلا بعد حوارٍ معك ، وإن سرت
على منهجك بالتفكير سأمتلك قاعدة
متينة تمكنني من المضي نحو فهم الحقائق
بطريقة موضوعية قد توصلني للنتيجة
الصحيحة))

((والدي الكريم : ربما من أكبر الأسباب
التي جعلتني أعيش الفوضى الفكرية؛
السرعة في القراءة، والتنقل بين التخصصات
والعلوم ، فأنا أريد أن أعرف كل شيء الآن ..
يهمني التاريخ وتشدني الفيزياء ثم أنتقل

لكتب الفلاسفة التي تبهرني وأجد فيها نفسى))

لقد وضعت هذه الفتاة مع صغر سنها أصبعها على الجرح ، وعرفت أن جوهر مشكلتها في (الفوضى الفكرية) ، وقد لاحظتُ في أثناء الحوار وما حدث بعده أنها كانت لا تعترض ولا تنتقد ولا تناقش فوضعت احتمالاً أنها ربما كانت مشتتة ذهنياً وتفتقد الصبر على استقصاء الأفكار وتتبع مساراتها ، كانت فيما أظن تعاني من (متلازمة الشك) تعيش في حيرة: لا تعرف

نفسها وماذا تريد ولا تعرف أنها لا تعرف،
لقد أبحرت في محيطات الفكر عبر قاربها
الصغير بلا خرائط ولا خبرة سابقة ، حملها
الفضول المعرفي على أن تخوض مغامرة
لتكتشف من ورائها عالماً جديداً ، لكن
مغامرتها تحولت إلى مخاطرة ألفت بها في
أمواج متلاطمة و متاهات موحشة، كانت
تصافح يقينها ساعات وتخاصمه ساعات ،
تؤمن وترتاب في الوقت نفسه، ثم تصاب
بنوبات من الكآبة فتحاول الهرب من كل
آلامها، ولم يكن الهروب حلاً أبداً لمواجهة
عدو شرس كالشك ، وفي رأيي أنها كانت

شجاعة حين طلبت المساندة من غيرها ،
وانتصرت على مخاوفها ، ولم تتكتم على
أزمته الفكرية والروحية، حتى لا تتفاقم
وتزداد سوءاً .

مفاجأة "حوار بلا انتصارات" :

إن كنتم تنتظرون أن تصل القصة إلى
بيان أنني حاورتها وأقنعتها بحججتي المذهلة ،
وبراهيني الناصعة ، وما إلى ذلك من
عنتريات تافهة ، فأمل ألا أكون قد
صدمتكم .

لست من هواة الاستعراض ، بل أنظر من الشهرة طبعاً وفطرة لأنها تكره أمثالي، ولأنني أراها مع شدة قبحها تستعبد عشاقها، كما أنني لا أمتلك قدرات خارقة لأجعل الناس يُقلعون عن شكوكهم في نصف ساعة أو نحوها، مبدأي في هذه الحوارات حدثكم عنه في الحلقة السابقة ، أنا لا أدخل مع شريكي في مناظرة أقارعه الحجج لأظهر ضعفه، ثم تنتهي تلك الملاكمة بانتصاري المدوي وهزيمته المذلة ، لأحتفل بعد ذلك بعبقريتي اللماحة وبراهيني الكاسحة !! ..

ليست هذه منهجيتي، ورحم الله امرءاً عرف
قدر نفسه، مواهبي لا تسعفني .

إن الحوار الذي أتبناه قائم على سياسة
وهي أنني شريك في التفكير، ورفيق رحلة
البحث عن الحقيقة، ولذا طلبت من الفتاة
أن تعرض إشكالاتها بالترتيب واحداً تلو
الأخر لأشاركها التفكير فيها، فنبحت سوياً،
ونكتشف المعلومات سوياً، ونتساءل معاً،
ونفتش بلا كلل خطوة بخطوة، ونراجع
ونقرأ ونتدبر ونقف طويلاً أمام الحقيقة
احتراماً لها وإجلالاً، و لن أسوق حججاً

جاهزة أقتصها من كتب مضت عليها عقود
لم تُجدد أو تُحدث، الأمر كما قلت لكم
سابقاً: هي ستصل بنفسها إلى بر الأمان
بإذن الله، وستخرج من هذه المحنة أرسخ
إيماناً وأقوى اعتقاداً، ففتاة تملك كل
ذلك الصدق والسعي لمعرفة حقيقة دينها
بالدليل المقنع، لن تُخذل، كيف وهي تدعو
الله في الأوقات الفاضلة أن يرزقها اليقين
ويكرمها بالنجاة من جحيم الشك؟! فما
بالكم وهي لم تفقد حُسن ظنّها بربها ،
وترجو رحمته ؟

لم يستطع كل ظلام العالم أن يطفى نورا
يقبع في أعماق قلبها .

أقدم لكم شديد اعتذاري إن أصابتكم
الخبية؛ لأنني لم أعرض لكم فاصلاً من
المناقرة والمنافسة بين خصمين يتعاركان ،
ولكني أعدكم في مقالات قادمة سأعرض
لأهم الشبهات المتكررة لدى كثير من
الشباب في التويتر والفييس بوك واليوتيوب ،
وأناقشها بالمنهجية التي أخبرتكم بها، أما
الشبهات ذات الطابع الخاص وما دار في
الحوار مع (فتاة الشك) من تفاصيل ،

فليس من الأخلاق أن أبوح بشيء من ذلك ،
ولو فعلت فسيكون بعد استئذائها وتحت
عينها وبرضاها ، فقد عاهدتها على أن
أحميها كما أحمي نفسي وعرضي ومالي .

وبعد إن قرأتم ما سبق، خاصة ما ورد من
كلامها وصدق بحثها عن الحقيقة، هل
تتوقعون أن أدير ظهري لحالتها أو لعموم
هذه المشكلة التي لا تخصها فقط ، إن فعلت
فسأكون كمن يتولى يوم الزحف (وَلَقَدْ
كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَارَ
وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) الأحزاب: ١٥

هذه الهجمات الفكرية التشكيكية التي
تخترق بيوتنا وعقول أبنائنا وبناتنا،
مواجهتها اليوم من أعظم الجهاد، وفي
الحديث النبوي: (جاهدوا المشركين
بأموالكم وأنفسكم وَأَلْسِنَتِكُمْ)، قال الإمام
ابن حزم الأندلسي في كتابه الإحكام أصول
الأحكام (٢٥/١): "وهذا حديث في غاية
الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها
كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله" وقد
نقل قبل ذلك قول الله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ

وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) الأنبياء:

١٨ فقال: "ولا شك في أن هذا بالحجة؛

لأن السيف مرة لنا ومرة علينا، وليس

كذلك البرهان، بل هو لنا أبداً ودامغ

لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً".

ومن تدبر القرآن وجدده كتاب حجج

وبراهين ومناقشات وحوارات، ولهذا أقول: إن

يقيني الذي ألقى الله عليه أن الإسلام لن

يهزم في مناقشة عادلة مستوفية للشروط

مع صاحب أي فكر ، فهل أعددنا العدة

وأنشأنا المحاضن التي تحتوي مثل هؤلاء

الشباب وتستوعب طاقاتهم الفكرية وتسمح لهم بتحقيق ذواتهم في حوارات معمقة نصغي فيها لهم طويلاً ونحاورهم بهدوء وعلم وفهم ، قبل أن تتخطفهم يد الشكوك بسبب تقاعسنا وفتورنا وعدم اكرائنا ؟!

أتساءل أحياناً فأقول: إذا كان الله شكر صنيع رجل أمارط عن طريق الناس غصن شوك كان يؤذيهم فأدخله الجنة بذلك ، كما جاء في صحيح السنة النبوية ، فما بالكم بمن يزيح الأذى الفكري عن عقول أبناء المسلمين اليوم ؟!

ألم يحن الوقت لنتحرك ، لنفعل شيئاً

لمواجهة هذه المشكلة ؟

مفاجأة "تجمعات المشككين"

عند استعدادي للحوار في بعض مراحلها،
تتبع بعض الصفحات التويتريّة التي تثير
الشبهات وتنشر الإلحاد، فقادني ذلك إلى
الولوج في عالم مُخيف، فأصابني الدهشة

من انتشار التشكيك في الدين بين بعض
أبناء أرض التوحيد ودول الخليج ، وبيان لي
أن المشكلة ليست مشكلة فتاة وحيدة وقعت
في الشك، بل هناك مئات غيرها من
الفتيات والفتيان، إن لم يكن أكثر،
واكتشفت أموراً خطيرة، سأحدثكم عنها في
المقال القادم إن شاء الله والذي سيكون عن
الإلحاد التويتري.

يمكن أن نؤرخ لظهور الشبهات الإلحادية
المعاصرة، وبدايات انتشارها في أوساط بعض
شبابنا بظهور المنتديات على الإنترنت منذ

خمس عشرة سنة تقريباً، وقد عُرفت بعض المنتديات برعايتها لتلك الأطروحات الإلحادية، وقد اختفى بعضها منذ أمد، ثم ظهر غيرها، وهكذا كان الحال بما يشبه جدلية الخفاء والتجلي، ظهور ثم اختفاء، ثم استقر الأمر على عدد قليل من المنتديات المحلية وغير المحلية لم تزل تبث تلك الشبهات إلى اليوم ، ونحن هنا نتحدث عن الظهور وبدايات الانتشار، ولسنا نتكلم عن الإلحاد المحلي بصفة عامة ، فبعض المتأثرين محلياً بالملاحدة تعرفوا على تلك الشبهات عبر البعثات الدراسية و السفريات

الخارجية التي أتاحت للبعض قراءة الكتب
المنوعة داخلياً ، ولكن تلك الوسيلة لم
تحقق انتشاراً للشبهات الإلحادية كما
حدث مع ظهور الإنترنت وبرز عالم
المنتديات بما فيها من ممارسة للحرية بلا
حدود .

استمر الأمر على ذلك حتى ظهرت
وسيلة جديدة هي ((التويتر))، ومع ظهورها
وانتشارها السريع بين أبناء المجتمع أصبحت
الشبهات الإلحادية تحظى بانتشار أكبر
وحضور أوسع لم يكن أعتى الملاحدة في

العالم ليحلم به في يوم من الأيام، خاصة في
مجتمع متدين محافظ كالمجتمع
السعودي.

إغواء تويتر وسرعته :

تحدث الإحصائيات أن عدد مستخدمي "تويتر" في السعودية يبلغ أكثر من ٣٠٪ من إجمالي عدد المشتركين العرب فيه، ولا شك أن هذه نسبة عالية جداً، لا تمثل الحجم السكاني للمملكة مقارنة بغيرها من الدول العربية، وربما حظي تويتر بكل هذا الحضور المدهش العجيب لأنه أصبح مصدراً مهماً للأخبار والتسريبات والإشاعات، بل وللمنوعات الدينية والاجتماعية، ولم يعد

أداة تواصل اجتماعي فقط كما أريد له ، بل
أضحى اليوم أداة تغيير ثقافي تتمتع
بالسرعة والإغواء خاصة لفئة الشباب من
الجنسين، كما أنه أداة حشد اجتماعي
يسعى البعض من ورائه إلى اتخاذ مواقف
محددة أو تنسيق تحركات شعبية معينة،
وبهذا يحق لنا القول : إنه أصبح بامتياز
أخطر أداة لتشكيل الرأي العام وتغذيته
بصفة مستمرة في مجتمعنا خاصة ، وقد
سهل من هذه المهمة أن الأكثر يتابعون
صفحاتهم في تويتر عبر الكمبيوترات الكفية

= (الجوالات الذكية)، مما يتيح لهم متابعة مستمرة ودائمة وفي أي مكان أو زمان.

الإلحاد التويترى تلقيناً وتقليداً :

لقد أخذت الشبهات الإلحادية مساراً آخر أكثر خطورة مع " تويتر"؛ **لأن الشاب المحبُّ للاستكشاف أصبح يتابع بعض أصحاب الصفحات ذات التوجه الإلحادي بصفة دائمة ، فأمست الشبهات تصل إليه يومياً باستمرار وبأسلوب كتابي مكثف لا يتجاوز**

١٤٠ حرفاً ، بل وبعض تلك التغريدات تكون متضمنة لروابط على اليوتيوب أو روابط لكتب أو روابط لمدونات ونحو ذلك ، ويمضي الشاب في البداية يستمتع ببعض تلك التغريدات التي تُطلعه على عالم خفي غامض يكتشفه لأول مرة يكسر بعض المحرمات والممنوعات، وقد قيل: كل ممنوع متبوع ، ولكن لا يلبث بعض أولئك الشباب من محبي الثقافة والإطلاع ، وبعد مضي عدة أسابيع أو أشهر قليلة أن يخضعوا لقصف عقلي متواصل يومياً لعشرات التغريدات الإلحادية وفي أوقات مختلفة في

الصباح وبعد الظهر وفي المساء ، بل البعض يبلغ أن يتعرض لمئات التغريدات من ذلك الصنف يومياً لكونه يتابع مئات الصفحات الإلحادية ، ويتوالى في تلقي ذلك الزخم المتدفق بلا انقطاع أو هوادة ، حتى يبدأ بالتأثر من حيث لا يشعر ، بل وجدت من أولئك الشباب من يظن جازماً أن تلك الشبهات التي يكتبها هي من بنات أفكاره ، ظناً منه أنها نبعت من عمق تفكيره ، وعندما تطلعه على أن ما لديه مطابق لما لدى الآخرين بالتمام ، يغضب لأبعد حد ، وأستطيع أن أتفهم هذا الغضب ، فهو بالفعل

لا يعتمد التقليد والنقل ، ولكن تعرضه
المستمر لذلك القصف العقلي المتواصل
عبر التغريدات المتشابهة وتفكيره بها ،
ينتهي به الأمر إلى أنه يعتنق بعض تلك
الشبهات بيقين ، لأن عقله ألفها وتعود
عليها ، ولأنه يفكر بها مراراً وأصبح يعيد
إنتاجها بأسلوبه الخاص ، وينسى أنه قرأها
مرات ومرات ، فلم يعد يذكر إلا تفكيره
الطويل فيها ، ومن هنا يحرص على إظهار
الأمر بأنه ليس متأثراً بأحد ولكنه حرية
تفكير واستقلالية صادرة عن شخصيته ،
وعند الموازنة سيظهر لأي دارس يتقن

المقارنات أن الأمر تقليد وتلقين ، نعم تلك الشبه يتم تلقينها للمتابعين بصورة دورية يومية وعلى أوقات مختلفة ، وباستمرار التلقين يتشكل اليقين ، وتصبح الشبهة الضعيفة المهزوزة حقيقة علمية راسخة لدى ذلك الشاب .

الشباب مرحلة التمرد وإثبات

الذات :

لا سيما وأكثر الشباب المتابعين لتلك الصفحات الإلحادية أعمارهم بين الثامنة عشرة إلى أوائل العشرينات، وهذه المرحلة

العمرية هي مرحلة التمرد وإثبات الذات،
إنها مرحلة بناء الهوية الفكرية، وتكوين
الشخصية المستقلة، والبحث عن الانتماءات،
هذه المرحلة هي عمر من القلق الدائم
والبحث المستمر والاكتشاف المتجدد ، ومن
المحزن جداً أن كثيراً من أولئك الشباب
المنبهرين بتلك الصفحات والمتابعين لها ،
لم يتحصنوا شرعياً، وفي الغالب أن
المعلومات الدينية لديهم تكون مشوشة
ومبتورة ، كما أنهم تنقصهم جملة من
الأمر المهمة، منها على سبيل المثال:

- لا يتقنون فن المناقشة والجدل .
- لا يحسنون وزن الحجج والأدلة وطرق صناعتها وبنائها .
- لا يعرفون كيفية اكتشاف المغالطات المنطقية في الاستدلال .
- لا يتقنون قواعد منهجية البحث العلمي الموضوعي .

فالشابُّ بذلك يخوض حرباً غير متكافئة، متوهماً أن الحقيقية يجب اتباعها مهما كان مصدرها، وأنه بتخليه عن معتقداته يكون بذلك ساعياً وراء الحق

الذي ظهر له، ويتبين لك عند الاستفسار أن معلوماته الدينية في كثير من الأحيان هي أشبه بمعلومات سياحية سطحية هشة للغاية ، حيث إن المقررات الدراسية الدينية انشغلت بحشد كم هائل من المعلومات ولم تلق بالاً لمثل تلك الشبهات والرد عليها أو تحصين الشباب منها ، أو عرضت له العقيدة بأسلوب تلقيني وبلغة تراثية لا تتوافق مع مفردات تفكيره فلم يفهمها بدرجة كافية ، كما أن البيت السعودي في كثير من الأحيان يُهمل الإشباع المعرفي لأبنائه بل ربما كان هذا من آخر اهتماماته ، ولذلك

أصبح بعض الجيل الجديد مزعزعاً مهزوزاً
من السهل التأثير عليه بتلك الشبهات ،
والمشكلة في ظني تكمن في أن مبدأ تعزيز
المناعة الفكرية بشروطها الحقيقية لا
الصورية كانت شبه غائبة إلا ما رحم الله في
عمليتنا التربوية والتثقيفية في البيت
والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام والأنشطة
الثقافية المتنوعة .

هل ستتفاجأ إذا علمت أن ابنك أو أخاك
أو صديقك الذي يجلس أمامك مُنحنيًا
على جواله، كان عاكفًا على متابعة

(التايم لاين) في حسابه التويتري، يقرأ
بتمعن تغريدات تقدر في الدين وتنال من
الخالق - عزوجل - وكتبه ورسله ؟
ثم هو يعلق عليها، بل يكتب ما يشبهها
ويسير في مضمارها !

حتماً سترعبك المفاجأة، لقد كنت تنظر
إليه ولا تشعر بأي تغير يستحثك على
معرفة ما يجري في عقله ووجدانه من أفكار
خطيرة وشبهات مُزلزلة، لكن ما يجري في
عالمه الخاص السري يختلف كلياً عن
ظاهره المخادع الموحى بأنه طبيعي جداً.

مثل هذا المشهد يحدث يومياً في مئات البيوت والجامعات والمقاهي، وقد تحققت من وجود كم ليس بالقليل من الصفحات ذات المضامين المشككة في الدين والمنتقصة له، ومكثت ما يقرب من الأسبوعين أطوف على تلك الصفحات وأرصدها، وانتخبت بعضها لأهمية مضامينها أو لعدد المتابعين الأكثر، وقرأت تغريدات أصحابها كاملة، فقد كنت أريد أن أتعرف على تفكير أصحاب تلك الشبهات واهتماماتهم وأساليبهم ومرجعيتهم وما يتفقون عليه وما يختلفون فيه، ورغبت وقتها قبل كل شيء أن

أكتشف عقلية جيل (فتاة الشك)
ومنطقهم، فقدتني تحرياتي إلى عالم لم
أكن أتوقعه ، وجدت منظومة متكاملة
تغذي الشبهات الإلحادية على مدار
الساعة، بأسماء مستعارة في كثير من
الأحيان ، وأحياناً بأسماء حقيقية ،
وبحسابات من الداخل والخارج، ووجدت
بعض أولئك بمثابة الرواد المنظرين الذين
ينتجون الأفكار التشكيكية ويصوغونها
بمكر، وهناك تنوع ملفت للنظر في طرح
الشبهات، فالبعض يركز على ما يسميه
(تناقضات القرآن)، والبعض يركز على

الطعن في الإسلام ومعتقداته وأحكامه،
ولاحظت تكراراً لطرح شبهات المنصرين ضد
الإسلام كما وردت في كتبهم المشهورة،
والبعض يركز على (النظريات العلمية
المادية) المخالفة للدين بزعمهم، مع هجوم
على ما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن
والسخرية منه ومن رواه .

وكان من اللافت للنظر بعد تلك
الرحلة أنني وجدت للإلحاد التويتري أذرة
هجومية، سأحاول تسليط الضوء عليها
بإيجاز:

أولاً : مؤسسة عالمية لنشر الثقافة
الإلحادية .

يعد البريطاني ريتشارد دوكينز من
أشهر الملاحدة المعاصرين ، وأحد أشهر
المدافعين عن نظرية (داروين) في النشوء
والارتقاء ، وقد أطلق هذا المتخصص في علم
الأحياء مؤسسة باسم "مؤسسة دوكنيز
للمنطق والعلوم" وقد بدأت نشاطها سنة
٢٠٠٦م ، وهي مؤسسة تسعى لتعزيز القبول
بالإلحاد وتدافع عن الأجوبة اللادينية

للأسئلة المتعلقة بالوجود بصورة شاملة .
ويشجع هذا الرجل الملحدين في جميع أنحاء
العالم على الظهور الإعلامي والإعلان عن
اعتقاداتهم بشتى الوسائل الاتصالية المتاحة
، ويهتم جداً بتقديم الأفلام الوثائقية
المعتنى بها إخراجاً وإعداداً وتصويراً ؛ ليبث
تشكيكاته حول الأديان السماوية التي
يصفها بأنها أصل كل الشرور ، وأنها جاءت
ضد المنطق والعقل ، ولمست من خلال تتبعي
للإلحاد التويتري أن أحد الملاحدة العرب
المؤثرين في "تويتر" ينسق مع هذا الملحد
ومؤسسته ، وهذا يطرح سؤالاً : هل هناك

مؤسسات أخرى لم نكتشفها بعد ترعى
بعض الحسابات التويترية الإلحادية أو
تنسق معها ؟

ثانياً : اليوتيوب وترجمة مواد الإلحاد .

عثرت في تلك الصفحات التويترية على
تغريدات كثيرة تحتوي على روابط تؤدي
إلى الموقع العالمي المشهور "اليوتيوب" تتضمن
مقاطع قصيرة أو أفلاماً وثائقية ليست
بالطويلة تدعو إلى الإلحاد صراحة وبشبهات
متنوعة ، ومواد مختلفة ، وكل تلك

المقاطع مترجمة إلى اللغة العربية بعناية
وبإخراج احترافي ، ولكم أن تتصوروا حجم
التأثر بتلك الوثائقيات على عقول شبابنا ،
إنها تقدم المعلومات الإلحادية بلغة مباشرة
ومؤثرة وبأسلوب ميسر مفهوم للأكثرية
يُجمل ذلك كله ويزخرفه تقنيات الصورة
المتفوقة والمؤثرات الصوتية المساعدة ، تلك
المقاطع والأفلام أعدت من قبل محترفين في
صنع السيناريوهات الوثائقية المرئية ،
ولديهم خبرة طويلة في ممارسة الإقناع
والتأثير على عقول المتلقين ، والسؤال : من
يقف وراء تلك المواد الكثيرة على اليوتيوب ،

من الذي يأتي بها ، ومن يترجمها ، ومن يحملها ، ومن يقوم بالإعلانات المكثفة لروابطها على التويتر ، ويعيد التذكير بها بين وقت وآخر ؟

أسئلة بريئة، لكن الإجابات ليست بالضرورة تكون كذلك .

ثالثاً : إذاعة عربية للإلحاد على الانترنت .

من خلال تلك الصفحات، وجدت بعض التغريدات، تضع روابط لإعلانات عن برامج

تُبت على إذاعة عربية إلهادية تنشط على الانترنت، وعند الدخول على موقعها، وجدت للأسف أن أكثر روادها من شبابنا وبناتنا، وكانت الموضوعات المطروحة من قبيل نقد الأديان الإبراهيمية، وأشياء عن ظلم الإسلام للمرأة، ومناقضة العلم المادي المعاصر للدين، وما إلى ذلك من أطروحات إلهادية، ولم أجد لها ذلك الحضور الكبير أو التأثير الظاهر، ولكن مجرد الاهتمام بهذه الوسيلة ، يطرح تساؤلات كثيرة، عن هذا الذراع الإلهادي، واحتمالية نموه وانتشاره في قادم الأيام، لاسيما مع تقدم التقنيات، وإمكان

استقبال مثل هذه الإذاعة بشكل واضح ودائم
عبر الجوالات لمدة أربع وعشرين ساعة.

رابعاً : مجلة عربية لنشر الإلحاد .

وقفت في بعض تغريدات تلك الصفحات
التويترية على روابط تنتهي إلى مجلة
إلحادية تصدر إلكترونياً باللغة العربية ،
نشر منها حتى نهاية رمضان لسنة ١٤٣٣هـ،
عشرة أعداد، وهذه المجلة لها هيئة تحرير ،
ومخرجة بشكل فني مميز بألوان زاهية ،
تتضمن صوراً متنوعة ، وكمية صفحاتها

ليست بالكثيرة، وتركز على موضوعات
إلحادية مكتوبة بلغة هجومية وثوقية
متعالية وبأسلوب ميسر مفهوم، وكل عدد
يتصدر الغلاف أحد الملحدين المشهورين من
الأجانب أو العرب، وتعرض الشبهات
الإلحادية على أنها (يقين) لا يداخله
شك، ويصور علماء الطبيعيات والهندسة
والطب والرياضيات والفيزياء والفلك على
أنهم كلهم ملاحدة ، وأن العلم المعاصر
قائم على الإلحاد ، ولقد هالني حجم
المغالطات المعلوماتية الواردة في تلك
الأعداد ، لقد كانت دعاية فجة بأسلوب

غوغائي يتنافى مع دعاوى التفكير الحر
والعقلانية والموضوعية العلمية .

خامساً : المكتبة الإلحادية .

وقفت على مئات التفريدات تتضمن روابط إلى مدونات تحتوي على جملة من الكتب المتخمة بالشبهات الإلحادية والطعون في الدين والمقدسات، ويتم التواصي بتلك الكتب، والإشادة بها ، والحث على قراءتها والاستفادة منها ، وتمنح أوصافاً من قبيل كتب الفكر الحر والعقلاني وما إلى ذلك من المديح الأخاذ المغربي، وبهذا يتوفر للشباب المستكشف المحب للاطلاع مكتبة إلحادية مصورة متاحة له بأيسر السبل ، يمكنه أن يقرأ فيها شبهات تشككه في مقدساته، وترمي

به بعد ذلك في بيدااء قاحلة لا ماء ولا شجر

تلك الأذرة الخمسة تخلق منظومة
تكاملية لنشر الشبهات الإلحادية عبر تويتر
، مما يوضح لنا خطورة الوضع ، الذي يصير
كثيرون على أنه حالة انبهار عابر ليس إلا ،
وهذا التهوين الساذج ، يقابله تهويل بالغ ،
وبين هذا وذاك أقول : إن الوضع الآن ينذر
بخطر قائم وبطوفان قادم ، يجب أن يتدارك
المصلحون الأمور قبل أن تنفجر أزمة فقدان
ثقة بين جيل صاعد متشبع بأفكار عصرية

وبين علماء ومفكرين يصرون على طرح ما
يشتهونه من قضايا .

وأختم مقالي ببناء إلى أولئك : ناضلوا
عن دينكم ، ناضلوا عن عقولكم كما
تناضلون عن أسوار بيوتكم ، فهذا زمن
الحروب الفكرية !

يا قوم إن حفظ رأس المال مقدم على
الريح .

